

لأننا دجلا فاجيا

نقدُ البعثَةِ الفرنسيَّةِ إلى الجزائرِ
في أربعينَاتِ القرنِ الماضيِ (*)

د. مروان بحيري

إن تجربة الاستعمار تجربة مألوفة. إذ إن المستعمر، إمّا أن يُباد، في العادة، أو أن يُتمثّل ويُمتص، أو أن يعزل؛ ومع هذا يظل المستعمر، ورغم الثقة بنفسه من تأكيد قوته، يشعر بالحاجة الملحة إلى إيجاد تبرير لأعماله. من هنا منشأ ما يُدعى بالرسالة التمديدية للامبريالية. لكن هذه الرسالة، هي في الواقع الفعلي، أبعد عن أن تكون «سبباً»، للتوسّع الامبريالي، وأقرب إلى أن تكون تبريراً، أخلاقياً - أو عقلانياً - لعملية أصبحت قيد التنفيذ والإجراء. حتى هوارس وفيرجيل - وهما الشاعران اللذان تغنياً بأعجاد الامبراطورية (imperium)، واكتشفا لها رسالة إلهية ملقاة على كاهل روما، هي توحيد العالم وبسط السلام على ربوعه بالقوة - لم يفعلوا هذا، إلّا بعد أن أنجزت فيالق روما عملها وأتمته.

وهذا يصدق أيضاً على العصر الحديث. فما إن يشتد عود الاستعمار ويتقوّى، حتى يبدأ التفكير بصياغة «الرسالة التمديدية» (Mission civilisatrice). ومع مرور الزمن، أصبح هذا أنصع جانب من جوانب صورة تزداد قتامة واكتئاباً؛ جاء شعراء من أمثال كيلنج يتغنون بالعيب الملقى على كاهل الرجل الأبيض تجاه الآخر، الذي «نصفه شيطان، ونصفه طفل»، ذي البشرة السمراء الملونة^(١). وهكذا، أمكن للاستعمار أن يفخر بمنجزات مشكوك فيها. وأصبح يرى أن العالم الذي كان بربرياً، أمكن إصلاحه بهمة من نصبوا أنفسهم كلاب حراسة للمدنية.

ذكر ثورنتون أن الامبريالية الثقافية عرّفت بأنها «العملية التي تصف نفوذ ثقافة في ثقافة أخرى وتحلّلها

(*) مجلة «الأبحاث» Al-Abhath، (فصلية، تصدر في الجامعة الأميركية في بيروت) - مجلد ٢٦، ١٩٧٣ - ١٩٧٧.

بأفكارها وعاداتها وغاياتها... أمّا المدنية، فيمكن تعريفها بأنها آلية عمل الثقافة، أو جانب من جوانب الثقافة يشرع في الأداء حين تريد إنجاز أمر ما^(٢). وأثناء فترة عودة البوربون إلى العرش الفرنسي، وما تلاها من ملكية تموز (يوليو) (١٨١٥ - ١٨٤٨)، اصطنع الفرنسيون رسالة مجيدة لأوروبا عموماً، ولوطنهم هم على وجه الخصوص، هي تمدن الأفارقة والآسيويين. ولقد كان تشديدهم وتركيزهم في معظمه على الدوافع غير المادية، مؤكدين في الوقت ذاته أمور الشرف، والواجب، والتسامي، كأسباب لتوسعهم الامبريالي. ويمكن للمرء طبعاً، أن يتساءل هل يمكن لثقافة ما أن تحكم على الثقافات الأخرى بأنها مؤهلة للتمدن والتشقيف، دون أن تشعر هي في الوقت ذاته بالاحتقار والاستهانة بتلك الثقافات؟ أغلب الظن أن الجواب بالنفي. لقد اعتبر الآسيويون والأفريقيون، على أقل القليل، أنهم «جماعات ضابطة يعير الأوروبيون إجراءاتهم ومعايير منجزاتهم بهم»^(٣).

بل إن مما يدل على التبجح والترفع واقعة أن الجماعات الأكاديمية والفكرية والدينية، كانت تتداول في مناظراتها بجد واحتداد واضح، مسألة ما إذا كان غير الأوروبيين، والأفارقة على وجه الخصوص، قابلين للتمدن أصلاً. وقد دُعي العلم الإله، الذي تم تنصيبه قبل قليل، لكي يدي بحكمه السامي^(٤).

كانت الرسالة التمدنية، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، خاضعة إلى حد كبير للاعتبارات الدينية الظاهرية: نشر المسيحية، ودفع الإسلام إلى الوراء، والصراع بين اللاتين الكاثوليك والانجلو ساكسون البروتستانت. لكن الرسالة اتخذت في بعض الأحوال جانباً أقرب إلى الأمور الدنيوية. كما في حالة سان سيمونيين، رغم ما يمكن الاحتجاج به من أن أتباع سان سيمون أقاموا ديانة جديدة. ومهما يكن الأمر، فسنبحت كلا الاتجاهين، الديني، وشبه الديني.

في سنة ١٨٣٠ وصف كليرمون - توتير، وزير حرب شارل العاشر، للمليكة غزو الجزائر بقوله «إنه عمل عظيم أنعمت به العناية على فرنسا، لتمدن العرب وجعلهم مسيحيين»^(٥).

وشبه بهذا، ما صدر في كتيب نشر سنة (١٨٤٦) بعنوان أم م. (AMM) تير وبارو: الجزائر، أثرها على مصير فرنسا وأوروبا. ولقد لاحظ هـ. لامارش أن «هدفنا من الغزو - وهو هدف لا داعي لستره عن الأوروبيين ولا عن العرب - هو الدعوة إلى المدنية المسيحية في إفريقيا»^(٦). وعبر م. روي عن نزعة مماثلة، إذ رأى استعمار الجزائر أنه «بسط القانون ومنافع المدنية على السكان الهمجيين: وأقرب أسلوب عقلي لهذا، هو أن يتم عن طريق الاستعمار المسيحي والمدنية الدينية»^(٧).

. (Celui d'une colonisation chretienne et de la civilisation par la religion)

وكان الدعاة والمنظرون العقائديون لهذه « الرسالة »، يميلون عموماً إلى استعمال لفظي المدنية والاستعمار كأنهما مترادفان يمكن تعريف أحدهما بالآخر^(٨).

ولا شك، أنه كان ثمة من ينظر إلى رسالة التمددين بمنظار أقرب إلى الدنيوية العلمانية، كبسط القانون الفرنسي، والمؤسسات واللغة والمهارات الفنية الفرنسية، واستثمار رؤوس الأموال - أي يعتبرونها، بكلمة مختصرة، تحديثاً. وهذا يصدق خصوصاً على السان سيمونيين والعصريين الآخرين المؤمنين بالحدثة: وقد أصبحت أفكارهم عن الجزائر هدفاً لسخرية بلانا دي لافاي اللاذعة^(٩). ولا يدهشنا أن نجد حتى الموقف الشعبي من الجزائر - وقد كان انتقائياً ملفقاً - يعكس عنصراً من عناصر الرسالة: وكمثال عليه نذكر ما نجده في العنوان المطول لكتيب أ. فرومونتال:

Essai sur la pacification, la colonisation, la civilisation, la sécurité, la prospérité, la force et la gloire de l'Algérie.

بحث في تهدئة الجزائر واستعمارها وتمدينها وأمنها وازدهارها وقوتها ومجدها. (الذي نشر في نانسي سنة ١٨٣٧).

ولقد كان مفهوم « الرسالة التمدنية » mission civilisatrice مستخدماً بلفظه هذا، لا من قبل دعاة الاستعمار وحدهم، بل من قبل القلة من المناهضين للاستعمار أيضاً^(١٠). كما يمكن العثور على صيغة أولية لفكرة « العبء على كاهل الرجل الأبيض » في كتاب روزيه « رحلة في مملكة الجزائر »، وفيه نداء لأوروبا وأميركا للمساهمة في عمل إنساني ماجد في إفريقيا: « لقد ضحّى أناس كرماء، نفوسهم مفعمة بمحبة الانسانية، بوجودهم ذاته في سبيل توعية تلك الأمم الممجية وتوسعة حدود المدنية »^(١١).

لكن إدخال المدنية إلى قطر ما، لم يتضمن دائماً أن يصبح المواطن من الأهالي المحليين مستفيداً منها، بل إن الواقع يثبت أنه كان يعتبر أحياناً ضرباً من العوائق المادية، وأولئك الذين كانوا يرون إبادة شرطاً مسبقاً لآية حياة متمدنة في إفريقيا لم يكونوا قلة. ففي مقالة نشرت سنة (١٨٤٦) في إحدى صحف بوردو، نجد التعبير عن هذا المعتقد بلا أسف، وبدون أي وخز ضمير: « ما علينا، لتبرير غزونا إلا أن نقول فقط إننا أدوات للمدنية مسيرونها^(١٢). ثم يسترسل المؤلف في إيضاح ما في ذهنه ويتعلق بالأهالي الوطنيين في الجزائر، فيقول « إن البدوي هو الهندي الأحمر في إفريقيا، ويجب تهيئة نفس المصير الذي آل إليه الهندي الأحمر أثناء عملية استعمار الرواد لأميركا، في عملية استعمار فرنسا للجزائر؛ يجب أن يختفي من على وجه الأرض »^(١٣).

كان بلانا دي لافاي مرافقاً عسكرياً لتابليون بونابارت، وكان خصماً لدوداً للتوسع الاستعماري الفرنسي.

وبعد حرب المائة يوم، رافق نابليون إلى بليموث على ظهر السفينة الحربية بيلوروفون، واختير لمشاركته منفاه في سانت هيلانة. لكنه فقد هذا الامتياز في اللحظة الأخيرة، حين قررت إنجلترا إنقاص عدد مرافقي نابليون إلى منفاه؛ فوجد نفسه، بدلاً من هذا، سجيناً في مالطا لمدة سنة، وقد شطب اسمه من لائحة الضباط في عهد استعادة ملك البوربون^(١٤). وقد تبين له فشل كل المحاولات التي أجراها لتسوية وضعه وإعادة اعتباره، حتى في عهد ملكية تموز (يوليو)، وكان قد تقدم بالتماس بمنقّ للوي فيليب سنة (١٨٣٩)^(١٥). ولقد ظل هذا الضابط العاثر الحظ مقتنعاً بأنه كان ضحية المعاملة السيئة، ولم يكتف خيبة أمله بملكيته البوربون وتموز.

كما تقدم لنا حياة پلانا دي لافاي جوانب طريفة. إذ ربما كان هو وزوجته البافارية، أول بروتستانتين موحدين في فرنسا^(١٦). وكان معجباً بغاريبالدي، ويراسله بانتظام. يضاف إلى هذا، أنه كان مؤمناً بحرية التبادل التجاري، فاهتم اهتماماً كبيراً بالمسائل الاقتصادية من مثل تطوير السكك الحديدية^(١٧)، وانقاص التعريفات الجمركية، والاستعمار، ونشر العقائد المؤمنة بحرية التجارة. وكان من هذه النواحي تلميذاً مخلصاً ل: ف. باستيات، وهو أحد أوائل الاقتصاديين الفرنسيين الليبراليين الذين عارضوا أيضاً استعمار الجزائر^(١٨). اهتم پلانا دي لافاي بغزو شمال افريقيا والتوسع هناك، اهتماماً اقتصادياً، فوجه دراستين إلى غرفتي البرلمان الفرنسيين سنة (١٨٣٦)، «في ضرورة الانسحاب من الجزائر» و«ملحق لدواعي التخلي عن الجزائر: مقابل ما يدعو لاستعمارها»، وهما تعكسان معرفة عميقة بالمشكلة الجزائرية ومهارة في الكتابة الجدلية، رغم أن پلانا دي لافاي ادعى أنه لا ينتمي إلى أيّ جانب أو طرف، مضيفاً أن احتجاجاته كانت موضوعية ولا تهدف إلى ترقية وضعه أو وظيفته^(١٩).

لم تكن المسألة الجزائرية، في رأيه، إلا «مسألة لا تزيد عن كرامة وطنية في غير محلها، نغماها بالأساس بعض الفئات المتطرفة من المعارضين، ثم تناوّلها بعض الخالمين السياسيين، وأخيراً تبنتها بعض المصالح المبطنّة»^(٢٠). فهي، كإحدى الممتلكات، لم تؤدّ بأية ثروة إلى البلاد، إذ ليس لها، في الواقع العملي أية قيمة تجارية أو زراعية؛ وكانت الحرب فيها هدامة، وتؤلف خطراً حريصاً كامناً على الجبهة الوطنية في حال نشوب أية أزمة أوروية^(٢١).

لقد حاول أن يتفهم الدوافع الأساسية للتصرفات الغريبة للبرلمانيين وللصحافة بخصوص «هذه المسألة المقنعة البالغة الأهمية»^(٢٢): وكانت هذه التصرفات تتصف بالحذر الشديد، والغموض المتعمد. فتساءل: لماذا لم تستطع الحكومة أن تملك أمرها وتتخلّى عن هذه المغامرة الهدامة؟^(٢٣)، ورأى أن أهم سبب وأكثره خطراً هو المصالح الجديدة التجارية التي نشأت هناك لمرسيليا وللبقاع المجاورة لها، رغم شعوره أن الأهمية التجارية تلك، فيما يخص فرنسا بمجملها، كان مبالغاً فيها كثيراً. بل لقد كانت مقتصرة اقتصاراً شبه كامل على حاجات القوى

المحتلة الفرنسية، ولم تشمل أياً من عرب الجزائر^(٢٤).

والتفسير الآخر هو « المصالح الشخصية لأفراد في مراكز مناسبة ملائمة، كانوا يضاربون في الممتلكات الممتازة حديثاً في المستعمرة تحت قناع المخططات الاستعمارية »^(٢٥).

وسبب ثالث قدّمه، وكان خوف الحكومة من مكائد دعاة « الشرعية البوربونية، الذين قد يتمسكون بالتخلي عن الجزائر كفرصة ذهبية، للعب على وتر العواطف الوطنية عند الشعب الفرنسي، مسببين رد فعل شعبي ضد نظام حكم ملكية تموز^(٢٦). وقد كانت منطقة مرسيليا إحدى أغنى مناطق المعارضة لأسرة بوربون، ومن هنا كان التمسك الشديد بالاحتلال من قبل حكومة لوي فيليب.

ولا شك أن على النظام أن يأخذ بحسبانه شعبية الحملة الجزائرية لدى الدوائر العسكرية المحترفة: « فلقد أدى احتلال الجزائر إلى ترقيات غير معتادة، وإلى فيض من التوشّحات بالأوسمة، وذكر في الشّئات ونشراتها »^(٢٧). وقد أشار دي لافاي إلى أن « الضباط، من المارشالات إلى صغار الملازمين كانوا جميعاً مؤيدين شرسين للاندفاعية الجزائرية، بل وتوسعات عسكرية أبعد منها »^(٢٨). وكان يمكن أن يضيف أن الحملات أسبغت أمجاداً وطنية على بعض الجنرالات ذوي الطموح السياسي، أمثال كلوزيل وبوجو^(٢٩).

لكن أكثر الأسباب أصالة من تلك التي قدمها ذلك المرافق العسكري لنابليون، كانت حجة « التطهير » أو « التنفيس »: فالجزائر هي صمام أمان لما يجري في الوطن من خيبات، وحقل يذهب إليه الأكثر عنفاً للتنفيس عن ضيقه. لقد تطرّق إلى هذا في ورقته الأولى « ضرورة التخلي » باختصار، ثم توسّع فيه في عمله الثاني « الملحق ». وهكذا كتب قائلاً:

« لقد نفذ الشعب ثورة تموز، فأيقظت فيه الكثير من الآمال والطموحات... ولقد رأت الحكومة من مصلحتها أن توجههم إلى الجزائر جاعلة منها مجالاً للفرص الجديدة. ثم أصبحت إفريقيا كلها نوعاً من المتنفس الذي أراح فرنسا من جزء من ميولها الفاسدة. وفي الوقت ذاته، استيقظت الميول الحربية في المجتمع الفرنسي بعد إغفاءة خمس عشرة سنة، فهددت بدفع البلاد إلى حرب أوروبية أرادت تجنبها بأي ثمن. ولهذا السبب، رَحَّبَت الحكومة بتوجيه هذه النزعات العسكرية، بأن عرضت على المفرط في التحمس حرباً زائفة أو مصطنعة (Un simulacre de guerre)، وعلى المفرط في الطموح، فرصة العمل، والانتشاح بالأوسمة، والترفع في الرتبة. ولا أظن بأن مجلس الوزراء قد رأى في امتلاك الجزائر مزايا أخرى »^(٣٠).

ثم حوّل انتباهه إلى الظروف المحلية في فرنسا، ولفت النظر إلى الفرص العديدة المتاحة للفقراء والعاطلين عن العمل لتنمية الموارد العظيمة في الأرض، التي أهملتها البلاد وتعامت عنها. بل إنه ألمح إلى إمكان وجود رابطة

بين القلائل الاجتماعية، والموارد العاطلة عن الاستغلال؛ وبين العبث والهدر والاستعماريين. واعتقد أنه كان يمكن تجنب الفورات الخطيرة، أو ربما كانت تصبح أقل عدداً ووتيرة، لو أن المائة وعشرين مليوناً من الفرنكات التي بُدِّت في حرب الجزائر كانت استخدمت لتمويل الأعمال الزراعية والشعبية الضخمة، مستخدمة القوة العاطلة عن العمل في فرنسا حينئذ^(٣١).

كما تعرضت الحجج التي قدمها العسكريون والمدافعون عنهم في سبيل الاحتفاظ بالجزائر لسهام نقد پلانا دي لافاي، وكان من تلك الحجج أن الاستيلاء الجديد «يشكل مدرسة لفنون الحرب يتدرب بها الجيش؛ وفرصة للاحتفاظ بالروح العسكرية (L'esprit militaire)»^(٣٢). فرأى دي لافاري العكس. إن هذه الروح قد نسفتها التجاوزات والمظالم التي حدثت على صورة الترقيات السريعة التي نالها بعض الضباط، وقلة أخلاق بعض الضباط الآخرين الذين أثروا من التزوير ومن المضاربة بالأراضي. يضاف إلى هذا، أن الثمن الواجب دفعه مقابل هذه المدرسة الخاصة بالحرب، والحفاظ على هذه الحوافز المشبوهة المسماة بالروح العسكرية، لم يكن من السهل على الأمة تحمُّله أو دفعه^(٣٣). كما أن مفهوم الاستعمار العسكري لم يكن لبروق له، إذ لم يجد قيمة في «مستعمرة تحت ظل الخراب. يضطر المستعمر فيها إلى حل الحربة بيد والمحراث بيد أخرى»^(٣٤).

وما أمضه على وجه الخصوص - ولا غرابة، بالنظر إلى ارتباطه الوثيق المديد بنابليون - هو سلوك بعض شباب الضباط الذين أخذوا يقارنون منجزاتهم التافهة بحملات نابليون العظمى: «إنهم يظنون أنفسهم يخوضون حرباً، وهم ليسوا في واقع الأمر إلاً مطاردين لبضعة «برانس» بيضاء عبر الصحراء»^(٣٥)، كما سخر من النشرات المتبجعة الخيالية التي تعلن بألفاظ طنانة، عن الانتصارات تلو الانتصارات وتلقفها الصحافة فتشرها^(٣٦):

«ولكن من المؤلم بالنسبة لجنود نابليون القدامى أن يروا الحرارة القتالية تضع في اشتباكات حقاء ضد البدو، من تلك التي كانت الأحاديث المضخمة عنها تجعلنا أضحوكة الوسط العسكري في أوروبا»^(٣٧).

وأخيراً لم تغب عن أنظارهم النتائج الاستراتيجية للتورط العسكري الكبير في حرب مستمرة في الجزائر. ففي حالة نشوب حرب في أوروبا، ستكون هذه المستعمرة عائقاً خطيراً. ويصبح من الضروري إخلاء المستعمرة بسرعة، أو المغامرة بتعريض القوات المحتلة لخطر التحطيم المؤكد: كما أن فرنسا التي تفتقر إلى القوة البحرية الكافية لإمداد قواتها في أفريقيا، ستشعر بالحاجة إلى تلك القوات للدفاع عن الوطن الأم^(٣٨).

ودون أن يتعرض للتفصيل والتعمق في المضامين، تطرق پلانا دي لافاي إلى المفارقة التي يتعرَّض لها المثاليون التقدميون الذين تواجههم مشكلة التوسع الاستعماري، تساءل: «كيف يستطيع الذين نصبوا أنفسهم

للدفاع عن مبادئ الحرية، والمساواة، واستقلال الأمم، أن يدعوا، في الوقت ذاته، لتأسيس مستعمرة لا يمكن إنجازها إلا عن طريق العنف؟^(٢٩). وأكد أيضاً على رفض الجزائريين للمدنية الفرنسية: «إن الأهالي الوطنيين ليسوا بحاجة لمدينتنا التي يرفضونها على أسس دينية وسياسية (avec mépris par principe religieux et politique)؛ وهم يعرفون تمام المعرفة أن حياتهم الشاقة ووعيمهم، حتى فقرهم، هي أهم ضمانات لاستقلالهم»^(٣٠). وكان مقتنعاً بهذا الخصوص أن مائة وثلاثين عاماً من التسلط الفرنسي لم تستطع أن تزيل أو تُحَتِّ الثقافة الوطنية.

لكن بلانا دي لافاي، لم يكنف بتقديم الأجوبة التي تفسر السلوك الغريب للحكومة، وبكشف أصحاب المصالح الخاصة الذين وجدوا حقلاً يانعاً لنشاطاتهم في المستعمرة الجديدة، بل انتقد أيضاً الدعاة والمنظرين وحججهم التي قدموها لتبرير الاحتفاظ بالمستعمرة، وبالتوسع الأبعد في شمال إفريقيا باسم الرسالة التمديدية لفرنسا (mission civilisatrice) ذاتها.

وكان السان سيمونيون - ومنهم ميشيل شيفالييه وايفانتين - شأنهم شأن أتباع فوربيه، دعاة متحمسين للاستعمار المرتبط بالتجارب الاجتماعية على أراضٍ جديدة، وهم المؤمنون قبلاً بمدنية عالمية شاملة يمكن الوصول إليها عن طريق نشاطات شبه تبشيرية^(٣١). وقد وصفت صحيفتهم «العالم» (Le globe) الاستعمار، بأنه «تدخل المدنية في الشعوب البربرية» (L'intervention de la civilisation chez les peuples barbares)^(٣٢)؛ وقد سلط بلانا دي لافاي سهام سخريته اللاذعة على بعض أقرب أفكارهم إلى نفوسهم، التوحيد السامي بين «الشرق» و«الغرب» والرسالة التمديدية^(٣٣). إذ اعتقد أن ليس لدى فرنسا دواعي تجعلها «تتحلّل تكاليف الزفاف»، في اتحاد اعتبره غيبياً صوفياً، لا يدري لماذا اختيرت له، بين كل الأمكنة، الجزائر بالذات^(٣٤). ورغم أنه كان أميل إلى التنويه بالنزعة الانسانية لتلك الدوائر التقدمية، ومحاولتها تصدير المدنية والوعي إلى الأفارقة، فقد كان يشعر أن فرنسا تفتقر إلى الشروط المادية، وربما الروحية، التي تؤهلها للقيام بهذه المهمة المجيدة. كتب يقول: «قبل أن نفكر بتمدين إفريقيا وإعمارها، علينا أن نبدأ بتمدين فرنسا - فهي بحاجة أكثر بكثير مما نظن في العادة، فلنبداً باستزراع الأراضي الشاسعة غير المستصلحة التي هي وصمة في جبين القرن [التاسع عشر]، والتي قد يدهش جيراننا لمعرفة أنهم أنها تبلغ ثُمْن الأرض الفرنسية كلها»^(٣٥). وبمعارضته للحجة القائلة أن فرنسا غنية بما يكفيها لتحمل أي ثمن في سبيل المجد، قال متعجباً: «هذه فرنسا القوية الغنية، لا تتحمل حتى تكاليف الاحتفاظ بشبكة مواصلاتها»^(٣٦).

وكان فوق هذا، يعتقد أن الثقافة والمدنية الفرنسيتين مقصورتان على أقلية ضئيلة، «والكتلة الجماهيرية الكبرى غارقة في الجهل والضلالة»^(٣٧). ثم أشار إلى الفظائع المشينة التي اقترفها الفرنسيون في منطقة تلمسان من

الجزائر؛ وتساءل « ترى مع أيّ جانب كانت المدنية؟ ومن كان البرابرة؟ »^(٤٨). الواضح إذن، أن الفرنسيين لم يكونوا جميعاً أبناء روجين لمونتين وفولتير وروسو - خصوصاً في مجال الاستعمار. ورغم هذا، فقد كان الفرنسيون، حين يواجهون ثقافة الآخرين، مرغمين بأن ينقادوا لإغراء اعتبار أنفسهم حراس المدنية الخصوصيين.

ورغم أن أفكار بلانا دي لافاي وانتقاداته للمغامرة الفرنسية في الجزائر، كانت ذات أثر ضئيل - إن لم يكن منعداً - في الرأي العام الفرنسي وفي مراكز القوة، فلا بد من الاعتراف بأنه كان داعية شجاعاً، لم يرف في تلك « الرسالة » إلاّ تبجّحاً مشيناً لا يليق بوطنه ولا بعصره. وكان أبعد من أن ينساق مع ما يدعى العنصر الإنساني للمصلحة الاستعمارية، بل رآها على حقيقتها: العنف في حالته الطبيعية. وهو من هذا الجانب، يُعتبر مبشراً مبكراً - وإن يكن أَلين عريكة - بفرانس فانون مؤلف « معذبو الأرض »، كما يُعتبر واحداً من أكثر المحللين تفهّماً للاستعمار في زماننا^(٤٩).

الحواشي

- (١) من قصيدة روديارد كلنج « عيب الرجل الأبيض » (١٨٩٩).
- (٢) أ. ب. ثورنتون، « عقائد الامبريالية » - (نيويورك ١٩٦٥)، (ص ١٨٧).
- (٣) فليب د. كورتن، « صورة افريقيا » - (مطبعة جامعة وسكن ١٩٦٤)، (ص ٢٤٥).
- (٤) ساهم في هذه المداولات من قبل بلومباخ ولورنس ولامارك، وعلى وجه الخصوص جورج كوفيه. انظر المصدر السابق، (ص ص ٢٣٠ - ٢٣١).
- (٥) ج. ب. بويله، « الرسالة الكاثوليكية الفرنسية في القرن التاسع عشر » - (باريس: ارمان كولان ١٩٠٢) - المجلد ٥ (ص ١١).
- (٦) ه. لامارش، « أ. م. م. نير وبارو... » - (باريس: بولان، ١٨٤٦)، (ص ٣٨).
- (٧) م. روي، « صور من تاريخ الجزائر » (ليموج ١٨٤٣)، (ص ص ٢٣٧ - ٢٣٨).
- (٨) صحيفة « العالم »، Le Globe، ١٠ نوفمبر/تشرين الثاني ١٨٣١، « عمومات السياسة الجزائرية »؛ وج. ب. فلانندان، « مملكة الجزائر، يمكن استعمارها؟ » - (باريس: فريه، ١٩٣٣)، (ص ١٢).
- (٩) ليولامارك، « الاستعمار، والسكك الحديدية والأقنية في الجزائر » - (باريس: ١٨٤١)، (الصفحات ٤ و ٥ من المقدمة).
- (١٠) ارمان كاريل، « الأعيان السياسية والأدبية لأرمان كاريل » - تحرير م. ليتري (باريس: شامرو، ١٨٥٧)، المجلد الرابع، (ص ٤٠١)، وقد كان كاريل داعية متحمساً للاستعمار. أمّا عن الإفادات المضادة للاستعمار، فانظر أ. دي جاسبارين في « فرنسا، وهل يجب عليها الاحتفاظ بالجزائر » - (باريس: ١٨٣٥)، (ص ٣٧). وقد استعملت تعابير أخرى بديلة لتعبير « الرسالة التمدينية »، من مثل: « العمل التمديني » (œuvre civilisatrice) و« الغزو التمديني » (Conquête civilisatrice). وكانت شائعة. انظر كتاب ج. ر. دي فلاسّون « حل مسألة المشرق » - (باريس: دنتو، ١٨٤٠)، (ص ٣٠).

- (١١) روزيه، «رحلة في المملكة الجزائرية» - (باريس، برتران ١٨٣٣) المجلد ٣، (ص ٤١٢).
- (١٢) توديسك، «البارزون العظماء» الجزء ٢، (ص ٨٢٧)؛ مقتطفاً من جريدة «كيريير دي لاجيرونده»، ٦ جوان/حزيران ١٨٤٦.
- (١٣) المصدر السابق، وقد عبر عن آراء مماثلة بوديشون في «زوال المسلمين» في «مراجعات عن الشرق والجزائر والمستعمرات»، ١٠ (١٨٥١)، (ص ص ٣٩ - ٤٠). كما اقترحت «ليكو دوران» (صدى وهران) - ٢ مايو/أيار، ١٨٤٦، إبادة الجنس العربي من الجزائر ومراكش. وإن هذا العمل إيجابي، والرافة الانسانية الحقيقية تتضمن وجوب إبادة الأجناس التي تقف في وجه التقدم. وانظر أيضاً: ف. ا. هارين، «وجود الأمة في الجزائر» (باريس: ١٨٣٢)، (ص ١٠٨).
- (١٤) «حياة بلانا دي لافاي: ذكرياته، رسائله، وكتابات» - (باريس، اوليندورف - ١٨٩٥)، (ص ٧ من المقدمة)، تحرير زوجته.
- (١٥) بلانا دي لافاي، «مذكرة مقدمة إلى الملك»، (باريس: ١٨٣٩)، (ص ١٠)؛ طلب فيها تثبيت الرتبة التي ترقى إليها في واترلو.
- (١٦) حياة بلانا دي لافاي، (ص ٧).
- (١٧) بلانا دي لافاي، «تشجيع الهبات من الدولة لمشاريع السكك الحديدية»، (باريس: ديلانشي ١٨٤٠)، (ص ٩). أراد من الدولة أن تشجع السكك الحديدية بدعمها مالياً بحسب كل كيلومتر من التمديدات.
- (١٨) «حياة بلانا دي لافاي» (ص ٥٦٣). ويدعي دي لافاي أنه كان صديقاً وثيق الصلة بالاقتصادي الليبرالي ف. باتيستنا، وأنه شكّل رابطة في باريس لنشر أفكار باتيستنا عن طريق الطبقات الشعبية لأعماله. ومن الأعضاء المهمين في الرابطة، ميشيل شيفالييه وهوراس ساي، ودوق أركور؛ وهو مؤمن متعصب لحرية التجارة، من بوردو. انظر، المصدر السابق، (ص ٥٦٣).
- (١٩) بلانا دي لافاي، «في ضرورة التخلي عن الجزائر» - (باريس، ديزوش ١٨٣٦)، (ص ٤).
- (٢٠) بلانا دي لافاي، «ملحق لفكرة التخلي عن الجزائر» - (باريس: ديزوش ١٨٣٦)، (ص ٣).
- (٢١) «في ضرورة التخلي...»، (الصفحات ٦ و ١٣).
- (٢٢) المصدر السابق، (ص ٥).
- (٢٣) المصدر السابق، (ص ٧).
- (٢٤) المصدر السابق، (ص ٩).
- (٢٥) المصدر السابق، (ص ٨).
- (٢٦) المصدر السابق، (ص ٩).
- (٢٧) المصدر السابق، (ص ١٠).
- (٢٨) المصدر السابق.
- (٢٩) بول آزان، «الجيش في افريقيا من ١٨٣٠ - ١٨٥٣» - (باريس: بلون، ١٩٣٦)، (ص ١٧).
- (٣٠) «ملحق لفكرة التخلي...»، (ص ١٦).
- (٣١) المصدر السابق، (ص ١٧).
- (٣٢) المصدر السابق، (ص ١٧). وصفت المجلة العسكرية «الجيش»، المستعمرة الجديدة بأنها «مدرسة عملية لفنون الحرب، وأرض اختبار لجيش شاب»، العدد ٢ (٢ يوليو/تموز، ١٨٣٧).
- (٣٣) «ملحق لفكرة التخلي...»، (الصفحتان ١٠ و ١١).
- (٣٤) المصدر السابق، (ص ١٥).
- (٣٥) المصدر السابق، (ص ١٢). و«البرانس»، تشير إلى الأردية البيضاء التي يرتديها الجزائريون.
- (٣٦) المصدر السابق، (ص ص ١٠ - ١١).
- (٣٧) بلانا دي لافاي، «في ضرورة التخلي...»، (ص ص ١٢ - ١٣).
- (٣٨) المصدر السابق، (ص ص ١٣ - ١٤).
- (٣٩) بلانا دي لافاي، «ملحق لفكرة التخلي...»، (ص ١٠).

- (٤٠) بلانا دي لافاي، «في ضرورة التخلي...»، (ص ٩).
- (٤١) صحيفة «لانايسونال» (٢٥ أغسطس/آب، ١٨٣٣). وفيها مثال آخر على النظرة التحديثية لهذا المدافع عن السكك الحديدية، انتقاده للبعثة المؤلفة من علماء نظريين، أرسلتها الحكومة الفرنسية لدراسة الجزائر. فقد اقترح بديلاً عنها إرسال مهندسين وفنيين شباب، (المصدر السابق). وانظر أيضاً: مقالة مارسيل بلانشار «رسائل أنفانتين عن الجزائر» في مجلة «ريفواستوريك»، العدد ١٨٢، (١٩٣٨)، (ص ٣٤٠). وقد عولج أثر السان سيمونيون الهائل المباشر في غزو الجزائر واستعمارها، من قبل مارسيل أيميريت في «السان سيمونيون في الجزائر» - (باريس ١٨٤٣). أمّا المخطط النظامي «العلمي» الذي ابتدعه انفانتين، فقد شرحه في كتابه «استعمار الجزائر» - (باريس ١٨٤٣). كما أسس جريدة سنة (١٨٤٤) لم تعمر طويلاً هي «الجزائر»، للدعوة لنظرته إلى الجزائر وإلى الاستعمار؛ انظر: «رسائل أنفانتين...»، (الصفحتان ٣٤٦ - ٣٤٧).
- أما السان سيمونيون، فلم يكونوا البتة وحيدين في ميدان ريادة التخطيط الضخم للتوسع والتنمية بين المستقبلين (Futurists)، فقد تبعمهم أتباع فوريه، خصوصاً وأن السيد الأستاذ، كان قد «تصور في وقت مبكر يعود لسنة ١٨٢١، استعمار شمال إفريقيا، واستصلاح الصحراء الكبرى، واستيطان أربعة ملايين أوروبي في مرتفعات جبال الأطلس»؛ انظر مقالة مارسيل ايميريت: «فكرة الاستعمار عند الاشتراكية الفرنسية»، في مجلة العصر الحديث «لاج نوفو» - رقم ٢٤، (١٩٤٧)، (ص ١٠٤).
- (٤٢) لو «جلوب»، (١٨ نوفمبر/تشرين الثاني ١٨٣١)؛ مقالة بعنوان «الجزائر: سياستها العامة».
- (٤٣) بلانا دي لافاي، «ملحق لفكرة التخلي...»، (ص ٦).
- (٤٤) بلانا دي لافاي، «ملحق لفكرة التخلي...»، (ص ٨).
- (٤٥) بلانا دي لافاي، «في ضرورة التخلي...»، (ص ١٥).
- (٤٦) بلانا دي لافاي، «ملحق لفكرة التخلي...»، (ص ٧).
- (٤٧) بلانا دي لافاي، «في ضرورة التخلي...»، (ص ١٥).
- (٤٨) المصدر السابق.
- (٤٩) للرجوع إلى بحث أكثر استفادة للحركة المضادة للاستعمار بين سنتي ١٨٣٠ - ١٨٤٨، انظر رسالة مروان بحيري، «المبول المضادة للاستعمار في فرنسا في فترة ملكية تموز: حالة الجزائر»، وهي رسالة دكتوراه من منشورات جامعة برنستون سنة ١٩٧٣، واستقيت منها هذه الدراسة.